الجرمنت سادة الصحراء

لا يـزال الغمـوض محيطـا بهـؤلاء الذيـن امتلكـوا زمـام التحكـم في الصحـراء الليبيـة وقهروهـا طويـلا، مـا تركـوه مـن بيـوت ومـدن ومقابر وأهرامـات وآثـار مختلفـة تخبرنـا الكثـير عـن حياتهـم وعاداتهـم، كـما توضـح لنـا نقـوش الرومـان الذيـن تصارعـوا معهـم طويـلا عـن شـدتهم وبأسـهم في الحـرب وقوتهـم، وكِتابـات المؤرّخـين القُدامـى والكُتّاب الكلاسـكيين القليلـة تعطينـا بعـض التفاصيـل عـن أصلهـم ومناطقهـم وأسـمائهم، كل هـذا حفّـز الكثـير مـن الباحثـين مؤخـرا للكشـف عـن أسرار الجرمنتيّـين الذيـن سـكنوا الصحـراء الليبيـة وأقامـوا حضارتهـم وسـط بحـار مـن الرمـال التـي كانـت تُصيـب المحتلـين بالجُنـون لـدى محاولتهـم التوغـل إلى أراضيهـا، ورغـم ذلـك فـما أُنتـج مـن كُتـب ودراسـات لا تـزال لم تَكشـف عـن كل خفايـا تلـك الحضـارة الليبيـة.

ينقـل تشـارلز دانيلـز صاحـب كتـاب (الجرمنتيـون ، سـكان جنـوب ليبيـا القدمـاء) عـن أحـد المؤرخـين قولـه :-

« إن اكتشـاف الجرمنتيين أمـر ليـس بالهيـن، بـل هـو عظيـم ومفاجـئ كمـا لـو كنـا قـد اكتشـفنا هـذه الأيـام فقـط حـوض البحـر المتوسـط، أو كولوزيـوم رومـا، أو مدينـة قرطاجـة، أو رأس شـرمة أو معابـد الكرنـك، ولكـن هـذا العمـل يجـب أن يتم،رغـم أنـه سـيكون جُهـدا طويـل الأمـد وفـي حاجـة إلـى زمـن طويـل لإكمالـه وإنجـازه».

ويُعقّب دانيلـز عـلى ذلـك بقولـه : « ورغـم الكتابـات الحديثـة حـول الجرمنتيـين إلا أن مـا قالـه ديـولي يبقـى صحيحـا كـما كان مـن قبـل» إننـا في الواقـع نقـف أمـام أهـم لغـز تاريخـي عـلى هـذه الأرض، و الـذي ينتظـر مجهـودا ضخـما ومتواصـلا مـن المؤرخـين والمتخصصـين للوصـول لصـورة واضحـة عـن سـادة الصحـراء هـؤلاء، وإلى أن يحـدث ذلـك نظَـل نمتلـك كتابـات قليلـة ووسـائل وآثـارا تُخبرنـا عما حدث.



يحـكي هـيرودوت عـن قصـة شُـبان ليبيـين كانـوا مـن أوائـل مسـتكشـفي الصحـراء ومجاهـل افريقيـا،كان ذلـك حـدث تاريخيـا وانجـازا يسـتحق الوقـوف عنـده، حيـثُ قطـع هـؤلاء بحـار الرمـال و عنـد وصولهـم الى النهـر وجـدوا أناسـا غريبـين و تماسـيح تعيـش حولـه، لم يفهمـوا لغـة الغربـاء، لكنهـم انجـزوا اكتشـافهم واعتقـدوا أن مـا رأوه امتـداداً لنهـر النيـل، ربمـا كان هـؤلاء مـن أوائـل مـن يتَتّبـع نهـر النيـل حتـى أعـمال صحـراء افريقيـا التـي كانـت تخيـف سـكان الجـزء الشـمالي مـن القـارة، هـذه الرغبـة في استكشـاف جنـوب القـارة وربطهـا بالشـمال لم تقتـصر عـلى هـؤلاء الشـبان دون بقيـة قومهـم كـما يبـدو، لذلـك كانـت تلـك الرغبـة حاسـمة في مسـار التاريـخ فيـما بعـد، وجعلـت مـن سـكان الصحـراء الليبيـة يسـيطرون عـلى أهـم الممـرات الصحراويـة ويقـودون التجـارة فيهـا قرونـا طويلـة مـما أعطاهـم النفـوذ والقـوة اللازمـة لبنـاء حضارتهـم.

ازدهـرت الحضـارة الجرمنتيـة لسـبعة قـرون، مـا بـين القـرن الأول قبـل الميـلاد والقـرن السـادس الميـلادي عاشـت هـذه الحضـارة أزهـى أيامهـا، فاسـتطاعت عسـكريا قهـر الحمـلات الرومانيـة بـل أنهـا زحفـت شـمالا لتصـل إلى لبـدة، وازدهـر اقتصادهـا وتجارتهـا حيـث قـادت التبـادل التجـاري بـين جنـوب القـارة وشـمالها وكذلـك الامبراطوريـة الرومانيـة، وتمكنـت مـن تطويـر طـرق زراعيـة حديثـة تمثلـت في حفـر قنـوات تحـت الأرض وربـط شـبكات ري بأسـلوب بديـع، و كذلـك الأمـر بالنسـبة للفـن والعلـوم والترحـال كلهـا شـهدت قفـزة في هـذه الفـترة قبـل أن تبـدأ في التدهـور لأسـباب سـيأتي ذكرهـا لاحقـا، جـرى الربـط – كـما يقـول دانيلـز – بـين جرمـة الحاليـة وبـين عاصمـة الجرمنتيـين القديمـة، وهـو ربـط يـكاد يجمـع عليـه مـن كتبـوا عنهـم وتؤيـده الدلائـل والاكتشـافات يومـا بعـد يـوم.

لكـن جرمـة لم تكـن سـوى عاصمـة لدولـة ومملكـة تمتـد طـولاً وعرضاً في صحـراء فـزان الليبيـة، وقـد ذكـر الكُتـاب الكلاسـيكيون كهيريـدوت وبلينـي وبطليمـوس وغيرهـم أراضي الجرمنـت ومناطقهـا ببعـض التفصيـل، تمتـد مـن غدامـس لتشـمل معظـم واحـات فـزان الحاليـة.

قلاع وملوك وقوافل

«نـشرت مجلـة ARCHAEOLOGY WORLD المتخصصـة في التاريـخ وعلـم الآثـار في مايـو 2012 مقالـة مفصلـة عـن آخـر مـا توصلـت لـه جهـود الكشـف والتنقيـب عـن آثـار الجرمنتيـين وأسرارهـم، ولكونهـا فريـدة مـن نوعهـا لمـا احتوتـه مـن اكتشـافات حديثـة ومثـيرة ننـشر هـذه الترجمـة الملخصـة للمقالـة».

في حـين لم يـترك الجرمنتيـون أي مـدن كـبرى مثـل لبـدة الكـبرى، صبراتـه، أو قورينـا، فـإن برنامجـا مدتـه 15 عامـا مـن المسـح والتنقيـب بـات يوفّـر بيانـات أركيولوجيـة تُظهـر أن هـذا الشـعب القديـم كان متطـوّراً ومعقّـداً ومتقدمـاً تقنيـاً مثـل جيرانـه المشـهورين شـمالاً، كان مجتمعهـم مبنيـاً عـلى زراعـة الواحـات ونُظُـم الـريّ الجوفيـة المتطـورة التـي تسـمّى فوقُّـارا FOGGARAS، مـا أتـاح لهـم زراعـة المحاصيـل ورعـي الماشـية في ظـروف عِدائيـة قاحلـة، كانـت مسـتوطناتهم مدنـاً وقـرى ذات معـمار معقّـد مـن الطـوب الطينـي والهيـاكل الضخمـة، وتاجـروا بكـثرة مـع كل مِـن أفريقيـا والبحـر المتوسـط وجنـوب الصحـراء الكـبرى، حتّـى كان لهـم شـكلاً مكتوبـاً مـن لغتهـم الأمازيغيـة.

كان أسـلوب حياتهـم مُسـتنداً عـلى ذات التقنيـات التـي ميّـزت حضـارات البحـر المتوسـط المعـاصر- وهـي الزراعـة، والتعديـن، والنسـيج، والصناعـات اليدويـة.

ازدهرت الحضارة الجرمنتية لسبعة قرون، ما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي



© Leicester University / SWNS.com

بُناة الدول

نحـن نعلـم مـن الأدلّـة التـي جمعهـا تشـارلز دانييلـز CHARLES DANIELS في السـتينيات مـن حصـن جبـل زنكيكـره أن الجرمنتيّـين قد تطـوروا إلى مجتمـع حَـضريّ بحلـولِ أواخـر الألفيـة الأولى قبـل الميـلاد، لاحقـاً، في التسـعينيات، وفّـرت الحفريـات في جرمـة القديمـة مـن قِبَـل دايفيـد ماتينغـلي DAVID MATTINGLY دليـلاً عـلى أن مركـزاً حضريـا ذا أبنيـةٍ ضخمـة وشـوارع وبيـوتٍ قـد ظهـر هنـا في القـرون الأخـيرة قبـل الميـلاد وأوائـل القـرون الميلاديـة، ولكـن تـم التعـرّف عـلى مواقع قليلـة أخـرى كجـزء مـن نفـس منظومـة المسـتوطنة.

الآن، تُشـير عمليـات المسـح فـي المنطقـة حـول جرمـة التـي قـام بهـا دايفيـد وفريقـه إلـى أن هنـاك مسـتوطنات أخـرى فـي منطقـة الواحـة، وإن كانـت صعبـة الاكتشـاف، هنـا تبـدأ القصـة.

المشاهد الباقية

تُعطينا بقايا المقابر الممتدة وأنظمة الري الجوفية المتعددة (الفوقّارا FOGGARAS) أدلة على أن دولة صحراوية عظمى قد وجدت هنا، لكن أنظمة الري المهجورة هذه التي زوّدت القرى والبساتين بالمياه قد خُبّئت بفعل زراعة الواحة المستمرة، لقد ركزت بحوثنا على وادٍ يسمّى وادي الآجال، حوالي 1000 كم جنوب طرابلس، حيث وجدنا دليلا واضحا على المشهد الجرمنتيّ الباقي، إنّ رسْمنا لخرائط لأجزاء من هذا الوادي – على سبيل المثال المنطقة المعروفة بـ تاقلّيت TAQALLIT – سجّل كثيراً من الاستيطان غير المعروف سابقاً و المجاور لنقاط توزيع أنظمة الفوقارا FOGGARA ، حيث كانت الآبار الأمّ للفوقّارا قد حُفرت بمقرُبة من الجرف، لاحظنا أنه كان هناك مقابر جرمنتية ممتدّة وشديدة الاكتظاظ.



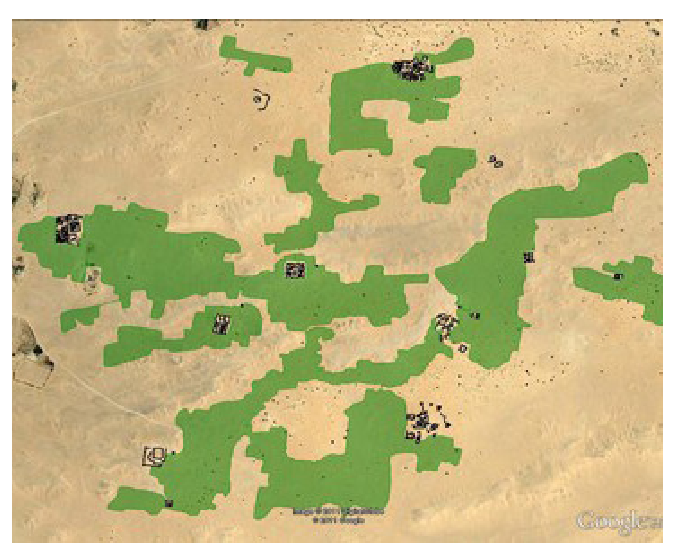
بقايا أنظمة الري المعقدة «الفوقارا» التي كانت تسقى بها مزارع وحقول الجرمنتيين

لقد حجبت التطور الحديث والرمل الذي جلبته الرياح من مورفولوجية وتفاصيل كثير من هذه المستوطنات، فعلى الرغم من كلّ ما كشفه بحثنا في وادي الآجال - بنجاح- عن كثير من مواقع المستوطنات الجرمنتية، فإننا ظللنا راغبين في معرفة المزيد عن خصائصهم، وقد تمكنّا من فعل هذا باستخدام التصوير الفضائي عالي الدقّة، لنكشف النقاب عن مستوطنات محفوظة جيدا في منطقة لم تُستكشف سابقاً من فزّان، حوالي 100كم جنوب شرقيّ جرمة في نواحي مدينة مرزق.

لقد تقلّصت الزراعة بشكل كبير في منطقة فزّان (منطقة تمتد لحوالي 600 كم مربّع) وتُوثّق الصور الفضائية دليلاً واضحاً على مخطّطات المستوطنات، وأنظمة الحقول والبساتين، وأنظمة الريّ التي كانت تغذّيها.

لقد تعرّفنا الى حد الآن على 92 قرية كبيرة مهجورة من الطوب الطيني، في مركز كل موقع تقريباً توجد «قلعة» مربعة من الطوب الطيني، أو قصر، وهيَ محفوظة أحياناً ككومةٍ كبيرة، لكن غالباً ما تكون الزوايا والأبراج الجانبية والبوّابات والغرف الداخلية والخندق المحيط لا تزال بادية، أكبرها تصل إلى عرض 32 متراً ولا تزال بطول 4 إلى 5 أمتار، حول قاعدة القصور تُوجد بعض أروع أمثلةِ البيوت الجرمنتية، مُعظمها مستطيل الشكل، حيث يتجه الجانب الأقصر جنوباً مُطلّا على فناءٍ كبير، وغرف على الجانبين الشماليّ والجنوبيّ.

القُرى الجرمنتية المثيرة للإعجاب مُحاطة بسور وأبراج من حولها، وهي بحجم مدنٍ صغيرة، تضُم السمات الأخرى مواقع محتملة لمعالجة المحاصيل، بيوتاً بأفنية واسعةو أزقّة، وساحات داخل المستوطنات ومقابر مرتبطة بها.



إن الجودة الاستثنائية للصور ودرجة حفظ البقايا القائمة لم تسمحا لنا بتخطيط التفاصيل المورفولوجية للمواقع المنفردة فحسب، بل الوحدات المجاورة ذات السمات الأركيولوجية التي تصل إلى 4 كم مربع في الحجم، و يمكن رؤية مئات الحقول، ويحوي كل واحد منها بئراً واحداً مُنهاراً على الأقلّ، مع شبكة من المسارات والممرات تربطها ببعضها، هذا كله يُوحي بأن المشهد الجرمنتي كان شديد التنظيم، مع مستويات من التسييج للمستوطنات والبساتين.

تنتمي الخَزفيّات التي تم العثور عليها خلال الزيارات الميدانية حصرياً إلى هذه الفترة الجرمنتية مما يوحي بأن هذا كان زمناً بلغ فيه الاستيطان والفلاحة في الصحراء أوجهما، بالإضافة لذلك، إنّ حجم هذه الاكتشافات يتحدّى الافتراضات السابقة بأنّ مستويات التعداد السكاني القديم كانت منخفضة في واحات الصحراء الكبرى.

في الواقع إن إعادة التشكيل الديموغرافي لمنطقة مرزق يفوق بمراحل الرقم المسجل في تعداد بداية القرن العشرين، وإذا كان هذا سائداً في كامل فزان الجرمنتية، فإنه يوحي بمستويات تعداد قد تكون بلغت الـ 50,000 إلى 100,000نسمة في أوجها.

المقبرة الملكية

إن فهم الأحياء يأتي غالباً من بحث الطريقة التي عاملوا بها موتاهم، مرة أخرى، يُبهرنا تطور ممارسات الدفن الجرمنتية، إحدى مواقع الدفن التي حفرناها قرب جرمة رائعة بشكل خاص، لقد لُقّبت بالمقبرة الملكية للجرمنتيّين، وهذه المقبرة الجرمنتيّة المتأخّرة الضخمة لها أضرحة مُستطيلة مدرّجة تتقدّمُها موائد قَرابين عظيمة ومسلّات STELAE، تقع ما تسمى بمقبرة الملوك إلى الغرب، مع مقبرة الملكات إلى الشرق، مع أنه لا يوجد دليل واضح على أن المقابر كانت مَلكية، فإنّ النُصب المدرّجة هي أكبر ما تم تسجيله في فزّان، وكَونها قريبة من العاصمة الجرمنتية لجرمة القديمة، مِمّا يجعل مِن هذا فرضيّة جذّابة.





الاكتشافات من بحوثٍ سابقة أيّدت تسلسلاً زمنياً من القرن الرابع إلى السادس قبل الميلاد، وتضمّنت أواني زجاجية، ومصابيح، وفضة، وحبّات خرز زجاجية وحبّات العقيق، وقطع قماش، ومباخر يدوية الصنع، وأدوت مائدة خزفية أفريقية حمراء، ومع هذا، فإن المحفوظات كانت ناقصة جداً، وبقيت أسئلة كثيرة دون إجابة، ما هو أكثر إلحاحاً هو أننا صرنا مُدركين أنّ هذه المنطقة مهدّدة بتمدّد للبناء الحديث، لذلك انطلق، في يناير 2011، مشروع هجرات الصحراء THE DESERT MIGRATIONS PROJECT لحل بعض ألغاز هذا الموقع رفيع الشأن.

الضريح المختار في مقبرة الملوك كان مُغطىً بكومة كبيرة من الركام، كانت الغرفة الداخلية مكسُوّة بحجارة خشنة، الجزء العلوي كان مطلياً بالمغرّة الحمراء– وهو اكتشاف مثير وغير معروف من قبل، في الجانب الشرقي من الضريح يمكن رؤية ماتبَقّى من مائدة قُربان مَنهوبة.

زوجان من مسلّات ثُنائية ومسَلّة أُحاديّة تَم إزاحتها كانت على الأرجح جزءاً من صفّ أصليّ يتكون من زوجين اثنين تُطوّقهما أحجار أُحادية، لقد نُهب الضريح في وقتٍ ما في الماضي، ولكنّ المُنقّبين استرجعوا مُكتشفاتٍ قد عُكّر صفوها في كل من الغرفة وخارج الضريح أوضحت بأنه يعود للقرن الرابع الميلاديّ، هذه المصنوعات اليدوية تضمّنت: خمس خواتم فضية غير منقوشة، وقطعاً من مباخر ذات زينة منقوشة ومطليّة، و12 حبة عقيق كبيرة مفلطحة أو كُرويّة، وثلاث خرزات من قشر بيض النعام، وست قطع مجوهرات من سَبيكة النّحاس، وثلاث أوعية زجاجية على الأقل، وأجزاء من أثاث خشبي محفور، وقطع خزف أفريقية حمراء، من الواضح أن هذه كانت قبوراً فاخرة.

